مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10عدد: 3السنة:2021
ص: 126 - 139 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الحوار وعي بالذات واستقبال للآخر: رواية "كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد " أنموذجا

dialogue ;self- awareness and welcoming of the other "book of the Prince-tracts of iron doors " a model"

* كريمة حداد[1]، بوجمعة شتوان [2]

Karima hddad[1], boujmaa chetouan [2]

مخبر تحليل الخطاب / جامعة مولود معمري –تيزي وزو الجزائر

University of Tizi Ouzou-Algeria

haddadkarima68@gmail.com [1] / joumouaa@yahoo.fr[2]

تاريخ الإرسال:2020/11/07	تاريخ القبول:2021/03/10	تاريخ النشر : 2021/09/02

ملخص البحث

نظرا لأهمية الحوار البالغة في سبيل الاعتراف بالاختلاف،ارتأينا أن نختار في بحثنا روائيا تبنى في إنتاجاته الأدبية منطق الحوار كوسيلة لمحاولة تحقيق التعايشبين المختلفين، نتحدث هنا عن الروائي الجزائري "واسيني الأعرج" اخترنا أن يكون "**كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد" أنموذجا**،وقد توصلنا إلى أن الكاتب **استطاع** أن يتخلص من ذلك التعلق بتصور مزدوج عن الذات والأخر،وفتح الباب على مصراعيه لأجل استقبال الآخر وتقبله،والتعايش معه ومع اختلافاته.

الكلمات المفتاح :. ذات، حوار، تقبل الآخر، تعايش

Abstract :

given the importance of dialogue and the management of difference, we decided to choose a novelist who adopted in his literary productions the logic of dialogue as a means of trying to achieve coexistence between the two different , we are talking here from the Algerian novelist **Ouassini Al –Araj** and we **chose "kitab el amir, massalik abwab el hadid** " as a model, and we found that the book was able to rid of this attachment to a double perception of self and other , and opened the door to receive and accept the other , and to coexist with him and his differences

Keywords: Self,Dialogue, Accept the other, coexistence.

* حداد كريمة / haddadkarima68@gmail.com

مقدمة

من الصعوبة أن ينكر أحدنا أن التباينات بين الحضارات ليست حقيقية فحسب بل إنها أولا حتمية وثانيا ضرورية وأساسية في آن واحد، فالحضارات تختلف عن بعضها البعض بفعل التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد، والأكثر أهمية من كل ذلك عامل الدين، والرغبة في الحديث عن تلاقي وتعايش الحضارات وتحاورها، ليس مجرد حديث عن فعل كلام عادي، بل هو تبادل الكلام بين أكثر من طرف لأجل التوصل إلى خلق مساحة للتقبل والتعايش والتراضي والإتفاق، بل إنه أولا وقبل كل شيء سعي واجتهاد للاتفاق على النظر في اتجاه واحد فالحديث عن الحوار بين الحضارات هو حديث عن مساهمة أكثر من طرف في الغوص في دروب الفكر وتشعباته،وفي إبداع الأسئلة ومحاولة حل إشكالاتها وفق ما تقتضيه "حقيقة الاختلاف"، ولذلك فالحوار قبل هذا وذاك هو وعي بالذات وتقبل لاختلافات الآخر وتخلص من مركزية الأنا، ورفض هذه النقطة الجوهرية يؤدي بنا إلى الحديث لا محالة عن مقولة أخرى فرضت نفسها على الخطابات بمختلف أشكالها، وهي مقولة صدام الحضارات، ولأن مجال اشتغالنا هو الأدب بصفة عامة، والرواية بصفة خاصة، ارتأينا أن نختار كاتبا ينبذ الصراع ويرى فيه عنصر مدمر للحضارات، كاتب تبنى في إنتاجاته الأدبية منطق الحوار كوسيلة لمحاولة تحقيق التعايش بين الذات والأخر المختلف، نتحدث هنا عن الروائي الجزائري "**واسيني الأعرج**" واخترنا أن يكون "**كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد**" مجالا لدراستنا لأن الكاتب حول من خلال تكريس بعض شخصيات تجاوز الأحقاد التي خلفتها الحروب وحاول بناء علاقة جديدة مع الآخر"الفرنسي"، منفتحا كروائي جزائري على الآخر ثقافيا وحضاريا وعقائديا وسنحاول بهذا الحديث عن الصبغة الحوارية التي ميزت روايته، والتي ركز فيها الروائي على ضرورة التواضع في تعاملنا مع الآخر ودعا إلى ضرورة التحرر من المنازع النرجسية والاصطفائية التي توهم الواحد منا بأنه يملك بين يديه الحقائق أو أنه مسيطر على قوانين الواقع أو ممسك بنظام العالم والأشياء، وسنحاول الإجابة عن إشكالية محورية مفادها:" كيف استطاع الروائي الجزائري **واسيني الأعرج** أن يتخلص من ذلك التعلق بتصور مزدوج عن الذات والأخر، ذلك التصور الذي يقوم على التمايز والتراتب والتعالي؟ وكيف تجاوز الروائي التمثيل الذي قدمته ولا تزال تقدمه المرويات الثقافية الدينية والأدبية، والتاريخية والجغرافية والفلسفية، والأنثروبولوجية عن الذات المتمسكة بوهم الصفاء الكامل للأنا والآخر المدنس بالدونية الأبدية؟

1.ثنائية الأنا والآخر: في النّص السردي الجزائري:

يلاحظ المشتغل على الرواية كجنس أدبي، أن الأعمال الروائية طرحت العلاقة الملتبسة بين الأنا والآخر(الشرق والغرب) من منظورات وزوايا مختلفة، وذلك باعتبار أنه حتى العلاقات بين هذه الثنائية تميزت كذلك بالتنوع، وبحالة من المد والجزر، بين الصراع والحوار، بين السلم والحرب، فقد قامت العلاقات بين العرب والمسلمين وبين الأوروبيين قديما وحديثا على الصراع الذي تمظهر وتجلى في حركات الاستعمار، ثم انتقل –في بعض الحالات النادرة– من الصراع إلى الحوار، بعد أن تكبد كلا الطرفين معاناة الحرب،بينما رأى العرب والمسلمون الحوار أكثر نفعا عندما تُعدل موازنات القوة بين الأطراف المتصارعة نحو التقابل والتفاهم والتواصل، وتبدى حوار الحضارات في العناية بالخصوصيات الثقافية وعناصر التمثيل أعرافا وطقوسا وتقاليد وأديانا ومعتقدات، مما يحسن عمليات حوار الذات مع الأخر استنادا إلى وعي بالتاريخ واستشراف للمستقبل،ولأن الكتابة الروائية تعبير عن الواقع بكل تجلياته فقد عمد الروائي واسيني الأعرج إلى إنتاج نص روائي ناقد في طياته لمقولة صدام الحضارات التي تبناها كثير من الباحثين ومرروها في أعمالهم سواء النقدية أو الإبداعية، فجاء نصه الإبداعي بمثابة لوحة فسيفسائية متشكلة ومبنية على أسس الحوار، وباحثة في الخيوط التي تقرب الأنا إلى الآخر، والآخر إلى الأنا، والتصالح معه إلى أبعد الحدود، والمثير للانتباه أن صورة الأخر المرسومة في رواية كتاب الأمير هي صورة للأخر المستعمِر، أما الذات أو الأنا فهي تجسيد لصورة الأمير المستعمَر المنفي المسلوب من قوته وعظمته.

2. موضوع الرواية:

رواية واسيني الأعرج:الأمير –مسالك أبواب الحديد" 2006، غوص في جزء من وقائع تاريخية جزائرية، وتعمق ملحوظ في شخصية من شخصياته ألا وهي **الأمير عبد القادر الجزائري** ذلك التعمق الذي تجاوز بكثير ما عرفناه عن هذه الشخصية، حيث لم يعمد الروائي إلى الحديث عن إنجازات أو نقاط قوة الأمير عبد القادر، بل اختار أن يكشف أيضا نقاط ضعفه آلامه وأماله، أحزانه وأفراحه، والرواية تعرضت إلى موضوع الحوار بين ندين أو بتعبير أدق عدوين(مستعمَر، مستعمِر)، ولكن يمكن اعتبار الرواية درسا في حوار الحضارات والأديان،بين المسيحية والإسلام، بين **الأمير عبد القادر الجزائري** من جهة **والقس مونسنيور ديبوش** من جهة ثانية. وموضوعها حوار الثقافات والأديان، السلم والتسامح، لذا يركز السرد على الجوانب الإنسانية المتسامية سواء في شخصية الأمير أو شخصيات العدو، – وذلك إذا قمنا بتجاوز فكرة وجود العدو بالنسبة للمتن الروائي الذي نحن بصدده– "**ليس من السهل –يقول ديبوش**

"**أن تتحدث عن عدوك بتسامح واحترام، يبدو أن الأمير من صنف آخر** "[1] وهنا يمثل **مونسينيور ديبوش** تاريخيا، أحد قساوسة فرنسا في الجزائر، ويجتهد السرد في رسم هذه الشخصية كرجل دين بما تقتضيه العبارة من معنى وبما تحمله من سمو ورفعة المكانة، لقد كرس نفسه لنصرة الحق حتى لو كان صاحب هذا الحق من ديانة مختلفة، حتى لو كان مسلما، ففي النهاية كل الديانات تدعو إلى العدل ونصرة المظلوم، والإنسان هو مراد القس، ليس مراده أن يساعد مسيحيا أو مسلما، فهو لا يرى ولا يحكم من هذه الزاوية، إنما نظرته ونظره إلى الإنسان كروح وكشخص.

والملفت في الحوار الذي جمع بين القس والأمير، أنّ كلا الطرفين تخلصا من هاجس فقدان الهوية، وخوف السقوط في فخ التبعية للأخر، لأننا لسنا أمام شخصيتين عاديتين، بل كل شخصية لها قناعة تامة بما هي عليه، ورغبة كل واحدة في الحوار مع الآخر ليست لأجل محوه أو السيطرة والهيمنة عليه، بقدر ما هي رغبة في الوصول إلى الحقيقة،فاستطاعت هاتين الشخصيتين إذابة الجليد وتفتيت تلال الصمت والتنافر بينهما وبين مكوناتهما، فالأمير والقس لهما مرجعيات ورؤى مغايرة، ومعتقدات متناقضة، ومؤثرات لها وقع على الذات، لكنهما استطاعا أن يجتمعا بصفتهما إنسانين ولذلك تعمق الروائي في كل شخصية على حدى ليصل بنا إلى نقاط التقاء هاتين الشخصيتين، فناقش تاريخهما، وتجاربهما الإنسانية المؤلمة، والذاكرة المليئة بالمآسي، وقد تجلت رغبة معرفة كل واحد منهما الآخر والتفاهم معه، في قول الأمير للقس :" **بدأت أقرأ كتابكم الإنجيل، وفي فترة إقامتك بجانبي، أتمنى أن تسمح لي بمساءلتك عن بعض القضايا الغامضة(لم يقل الخاطئة)، لم تتح لي الحروب والتنقلات المستمرة إلا قراءة شذرات هنا أو هناك، ولكني هذه المرة مصمم على قراءته كاملا وفهمه إن أمكن"يجيبه القس:" الإيمان في القلب، وما في القلب لا يعلمه إلا الله، أنا مستعد من كل قلبي لأسئلتك"**[2]، فرغبة الحوار هذه ليست لأجل التأثير في الآخر أو زحزحته عن طريقه، أو تشكيكه في مدى مصداقية أرائه أو ديانته، بل هي رغبة في الوصول إلى التراضي حول الأجوبة، وتصويب المسار، أو تصحيح الأخطاء إن وجدت، وتمكين الأنا من جهة والآخر من جهة أخرى من اكتشاف الوجه الغائب من الحقيقة، فمن الطبيعي أن ينتهي الحوار في هدفه إلى منتهى حاسم يجبله الإيمان العميق والانفتاح والاقتناع بنتائج الحوار، ومن أجل إدراك تلك الغاية لابد أن يملك كل من الطرفين المتحاورين حرية الحركية الفكرية، بالإضافة إلى الثقة بالنفس وبالشخصية المستقلة، بعيدا كل البعد عن التبعية أو القيدية، أو الإرضائية، تحت وطأة الرهاب الفكري والسيكولوجي، أو أن يشعر الطرف المعارض بعظمة الطرف الآخر المجابه له في الحوار، ويتقزم أمامه أو

ينسحق، أو أن يصبح مجرد صدى لأفكار الأخر،وفي هذا الصدد يقر الباحث **مايكل أنجلو ياكوبوتشي** في كتابه :" **أعداء الحوار وأسباب اللاتسامح:**" إن الإحساس بالذات يقود إلى توكيد الهوية، وتكوين الأنا، ويمكن أن يتحقق فقط من خلال مواجهة الآخر"[3]، لا نقصد بالمواجهة رفض الآخر أو النظر إليه بتعصب أو بنزعة فوقية، بل أن نواجهه بما لدينا من أفكار ومعتقدات، وألا نذوب فيه، بل أن نبدي آراءنا ونستوعب آراءه، لذا يجب أن يقف الحوار على موقف احترام للآخر، وتقبله كم هو، وهذا ما تجسد بصورة واضحة في الحوار الذي دار بين القس والأمير عبد القادر، فمنطق الحوار يقتضي بنا العودة إلى الحقيقة الأزلية التي يحاول دعاة التعصب نكرانها،وهذه الحقيقة الأصلية هي "أن الإنسان ليس مفردا، بل هو جمع، هو"ذات" و"غير" في الآن نفسه، بدليل أن الإنسان قد يحاور ذاته كما يحاور غيره، فالعملية الحوارية متوافقة مع أصل الإنسان من حيث أنه جمع، وليس من حيث إنه فرد كما اشتهر وترسخ في عقول المحدثين خاصة" [4]، فلا حوار مع التفرد الحضاري، لأن التفرد نفي للآخر، ونفي الغير نهاية للحوار، وبداية للصراع والتقاتل وبالتالي نهاية الحضارة الإنسانية.

3 . الجديد في رواية كتاب الأمير:

3 .1. سردية مغايرة وجمالية إبداعية:

لم يتتبع الروائي مسار الروائيين التقليديين، الذين كتبوا عن عسر الحوار بين الحضارات في غالبية أعمالهم، بما أنهم أشاعوا موضوع تأزم وعي الآخر وتحقيق ما يسمى الحوار، فبُني النص الروائي على نسق الحوارية التي تنهض من خلال تعدد الأصوات مما سمح لانبثاق فيض من الدلالات، فالروائي قد بنى روايته على تعدد الشخصيات، وتباينها من جزائرية إلى فرنسية من مسلمة إلى مسيحية، ويتمثل لنا **باختين** في مثل هذه الحال قائلا :"**إن أعظم عقبة تعترض طريق الفنان هي خلق كيان فني موحد متكامل من مواد متنوعة ومتنافرة وغريبة عن بعضها بعمق**"[5]فقامت الرواية على تعدد الأصوات، والشخصيات، واللغات، والأساليب، والمواقف والمنظورات السردية. وهذا ما يسمح لكل القراء المفترضين والمختلفين أن يدلوا بآرائهم بكل حرية وتلقائية، فيختاروا ما يشاءون من المواقف والإيديولوجيات المناسبة وفق ما تستقبله عقولهم وما تتقبله معتقداتهم، في حين نجد الرواية التقليدية رواية أحادية الصوت يتحكم فيها الراوي والسارد العارف بكل شيء. فكأننا بالروائي أخرج الحوار من المتن السردي عابرا به إلى القارئ أو إلى القراء المفترضين، ليمنح لهم القدرة على التحاور لأن الأصل في الكلام هو الحوار فالرواية ليست موجهة للمسلم على حساب المسيحي، ولا العكس، إنها موجهة للإنسان الذي يتمتع بنوع من

الاستقلالية في التعبير عن أفكاره، والإفصاح عن مشاعره الوجدانيةوالحديث عن مخاوفه، أحلامه، وأماله وآلامه، كما تدافع الشخصيات في الرواية عن معتقداتها الشخصية بكل حرية، فتعرض أطروحتها الإيديولوجية غير خائفة ولا متوجسة من آراء الآخر الذي يخالفها الاعتقاد ويناقضها في الرؤى، وهذا ما كان جليا في الرواية فالأمير وفي محاوراته مع القس يقول معبرا عن إيديولوجيته:"**مونسينيور، جيد أنهم يتركوننا نصلي على الأقل وإلا تحول هذا القصر إلى محشرة، أعتقد أن الصلاة لا تؤذي أحدا، فهي ليست بيننا وبينهم ولكنها بيننا وبين خالقنا"يجيب الأسقف قائلا:" لا أعتقد أننا وصلنا إلى هذا الحد أيها السلطان الكريم، وإلا لن نتحدث عن كائن اسمه الإنسان، الإنسانية يا سيدي عبد القادر، استحقاق وليست إرثا سهلا"**[6]فتتكلم الشخصيات في الحوار بلغتها الخاصة وتعبر عن رؤيتها للأحداث وانفعالاتها وتاريخها، في الوقت الذي يختفي فيه الروائي، بمعنى أن خطاب الراوي يتوقف، ويبدأ خطاب الشخصية، وهكذا في كل المحاورات يتم التعبير عن المعتقدات وعن الأفكار، ما جعل الرواية أشبه بلوحة فسيفسائية تجمع بين الأفكار المتعارضة والمتباينة، وترسم لنا صورا متنوعة ما يتيح للقارئ اختيار ما يتماشى وفق إيديولوجيته"إن التعدد الصوتي يجعل الرواية حقلا تتقابل فيه أصوات متعددة، تعكس الاختلاف على مستوى الرؤى والإيديولوجيات"[7]، وبالتالي تنوع القراءات وتعددها .فـ" غياب سلطة الصوت الواحد، خاصة صوت الكاتب المهيمن والمسيطر على شخصياته أعطى الرواية صبغة الانفتاح والإنزياح عن نمط الرواية التقليدية. فلغة الحوار تعتبر أداة التواصل الحقيقية مع القارئ، لأنها تحمل دلالة للأفكار التي تعبر عن الشخصيات، ويخرج السارد من الصورة لتقوم الشخصيات بتقديم نفسها، وليس مهمة الحوار السرد، إنما إضاءة جوانب الشخصية، وهذا ما نجح فيه الروائي، فهو لم يغرقنا في متاهات الحوار، بل كان الحوار الدائر بين الشخصيات ملفتا للانتباه ومثيرا لتساؤلات القارئ وفاتحا أفاقا واسعة للتعرف عن قرب على الشخصيات وعلى اختلافها.

3 . 2. تقويض مركزية الأنا والانفتاح على الأخر

أرسطو قديما قال:" نحن لا نعرف أنفسنا إلا من خلال معرفتنا بالآخرين" وهذه المعرفة تنطلق أولا من معرفتنا لذواتنا، وبدون هذه المعرفة لا يمكن لنا أن نتحدث عن حوار بين الأنا والآخر، أو حوار بين ثقافة وأخرى، أو حوار بين ديانة وديانة مخالفة، ومن هنا يتحتم علينا أن نعرف كيفية التعامل مع الآخر، هل سنتعامل معه كأخ أو كغريب، هذا الآخر الذي يتخذ في مجتمعاتنا صفات عدة، لكنه في كل الحالات يبقى أخر، وفي رواية **كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد**، جاءت شخصية الآخر "مسيحي"

يدافع عن تعاليم المسيحية، ويجسد في أرض الواقع إنسانية هذه الديانةأما "الأنا" فشخصية مسلمة تشبعت بروح الإسلام، وبمبادئ ومعتقدات إسلامية منذ الصغر وتجدر الإشارة هنا إلى أن الروائي لم ينطلق في كتابته للرواية من فراغ، فهو قد اعتمد على تاريخ الأمير عبد القادر، فالعائد إلى تراث الأمير عبد القادر الجزائري يجده يعلن في نص تبشيري مركز وواعد...ويصرح الأمير بنبرة احترافية استشرافية واثقة، بأنه يستطيع رفع الخلاف الكبير الواقع بين النصارى واليهود، والمسلمين، بل نجد الأمير يؤكد أنه يستطيع أن يُصير هؤلاء إخوانا أخوة ظاهرة وباطنة، لكنه يضع ثلاثة شروط من أجل الوصول إلى مبتغى التصالحي التوافقي بين الأديان والطوائف والحضارات، وهي :" الإصغاء إليه، ثانيا : الفهم عنه، ثالثا: الصدق في طلب الحق، يقول الأمير:" **ولو أصغى إلي المسلمون والنصارى لرفعت الخلاف بينهم ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا...ولو جاءني من يريد معرفة طريق الحق وكان يفهم لساني فهما كاملا لأوصلته إلى طرق الحق من غير تعب لا بأن يقلدني، بل بأن يظهر الحق له حتى يتعرف به اضطرارا**[8]،فمن منطلق فلسفة الأمير الحياتية يؤكد على أن الناس يقطنون عالما يتواصل فيه الكل مع الكل، عبر صيرورة معقدة من النشاطات المتبادلة، وعقيدة العزل والتهميش والقطع ليست بالمحبذة إطلاقا.

والمبدأ الجوهري الذي يكتنف ماهية الحوار هو الاعتراف، فلا يمكن البتة تصور موقف تسامح أو حوار بين الذوات البشرية إلا من خلال الاعتراف المتبادل فـ"هويتنا يتم تشكيلها إلى حد ما بالاعتراف أو بعدم الاعتراف وغالبا ما تشكل بفعل سوء اعتراف الآخرين، ولذلك لأن شخصا ما أو جماعة ما ستعاني ضررا حقيقيا وتشويها خطيرا إذا ما كون الناس أو المجتمع المحيط بهم صورة مختزلة أو مهينة أو مزدرية عنهم ونقلها إليهم في الوقت ذاته، وتبعا لذلك فمن الممكن أن يتسبب عدم الاعتراف أو سوء الاعتراف في أذى نفسي، فيتخذ شكلا من أشكال الاضطهاد، وذلك يجعل المرء حبيس نمط زائف ومشوه ومختزل عن الذات"[9]، والأمير في محاوراته مع القس، لم يلغ خصوصية القس، ولم يبذل في ذلك جهدا، لأنه يعترف للآخر بحقه في الاختلاف، وبحقه في أن يكون ذاتا مستقلة، يقول الأمير للقس: **"متيقن أن قلبك لن يوقف عن فعل الخير، حدثني إذن كأخ ولا تقلق من أخطائي، فالنية الطيبة هي سيدة السؤال"**[10]، يجيبه القس:" **لك كل المحبة التي تقرب أحدنا من الآخر، حتى لو اختلفنا لتستقر روحانا داخل الحقيقة الإلهية الكبيرة"**[11]، فلا تقليص لقيمة الآخر أو إنقاص لشخصه، فالتعامل والحوار في الرواية قائمين على مبدأ أنا مختلف معك لكني لست ضدك، وهنا يحضرنا قول ي **إيمانويل لوفيناس** " إلى القرب منك يوجد الآخر، بادر إلى لقائه، اللقاء هو الاختبار والتجربة الأكثر أهمية. أنظر إلى الوجه الذي

يقترحه عليك الآخر،من خلال هذا الوجه ينقل إليك ذاته "[12]، فالروائي تجاوز النظرة التقليدية للأخر، ولنقل قوض مقولة سارتر المشهورة "الأخر هو الجحيم"، تجاوز الكاتب لغة الأحكام المسبقة"التي تصنع الأجنبي الغريب وتحصر في ماهية واحدة أناسا بسبب أصلهم وثقافتهم وعقيدتهم، ومظهرهم وموطن ولادتهم[13]، قلنا تجاوز الروائي مقولات الرفض والإقصاء، تلك اللغة العنيفة التي طبعت العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر، بين المسلم والمسيحي، إلى لغة أكثر تسامحا وأكثر إنسانية لغة المحبة والتفاهم، وأكد على أن فكرة عدم قبول الآخر إلا إذا تخلى عن ذاته وألا نحفل به ونتقرب منه إلا أذا قرر أن يشبهنا، وأن لا نوافق عليه إلا إذا تنازل عن كل ما كانه هي فكرة إقصائية تعصبية، فلا أحد يملك الحق في إقصاء الآخر أو تجريده من سماته التي تميزه، لذلك ففهم ما يعنيه قبول الآخر يقتضي إدراك أن هذا القبول لا يتعدى من الناحية العملية سوى تفهُّم وجود هذا الآخر ولا يقتضي بأي حال من الأحوال اعتناق فكر هذا الآخر أو التماهي معه أو تحول صاحب فكرة القبول ليصبح هو نفسه ذلك الآخر.

وغالبا ما يظن البعض بأن الاعتراف بأن الأخرينيمكن أن يكونوا أفضل أو أسوأ منا، والانفتاح نحو احتمالية أن يكون في معتقدات وسلوكيات الآخرين ولو ذرة من الحقيقة –وهو لب التسامح_ يثيران الريبة والقلق وعدم الاستقرار ولا أمان، لكن الروائي وبالاعتماد على الصفات الأخلاقية التي ألصقها بشخصيتي الأمير والقس تجاوز اللاتكافؤ الذي قد يكون أمرا لا مفر منه، لأننا في صدد الحديث عن علاقة حوارية بين مستعمَر ومستعمِر، بين مسلم ومسيحي، وعبر عن إمكانية قيام حوار يتجاوز أطرافه كل هذه المعوقات منطلقين إلى عوالم التسامح والسلم والإنسانية، وفي محاولة من الروائي التقليص من تبعات أو لنقل مخلفات الصور النمطية المجحفة في حق المسلمين، عمد إلى تكريس شخصية فرنسية لتقويض الصورة السلبية المروية عن الإسلام، ففي حادثة الأسرى، تقول زوجة الأسير ماسو للقس:" **الأخبار يا سيدي تقول إن العرب يقتلون سجناءهم ويبعثون أذانهم ورؤوسهم لمسئوليهم، لكي ينالوا حقوقهم بحسب عدد الرؤوس والآذان التي يقطعونها**"[14]، لنجد الروائي قوض هذه الصورة وذلك عن طريق الاستعانة بشخصية فرنسية، أي القس الذي دافع عن الأمير : "**ما سمعته عن هذا الأمير يؤهله لرتبة قائد وليس حراميا، ولا أعتقد أنه سيقتل زوجك ما دام سجينا لديه، الذين هربوا أو الذين أطلق سراحهم يؤكدون على قوام أخلاقه العالية** "[15]، لتثبت الأنا للأخر أنه لم يخطئ في الثقة التي وضعها فيه، ففي إجابته على رسالة مونسينيور ديبوش جسد الأمير صفات الإنسانية في منتهاها فغمر بتسامحه كل الأسرى :"....**كان من واجبك أن تطلب مني إطلاق سراح كل المساجين**

المسيحيين الذين حبسناهم منذ عودة الحرب بعد فسخ معاهدة تافنة وليس سجينا واحدا كائنا من يكون، وكان لفعلك هذا أن يزداد عظمة لو مس كذلك السجناء المسلمين الذين ينطفئون في سجونكم، أحب لأخيك ما تحبه لنفسك "[16]، وفي هذا تجسيد لقيم الإسلام الحقة، وهذا ما يدفعنا للحديث عن حوار الأديان، فأي إمكانية لقيام مثل هذا الحوار.

. 3. حوار ديني وتواضع وجودي:

إن الحوارية موجودة بوجود الجمع الإنساني في المظهر الفردي للواحد، وهكذا، بقدر ما أمارس قدرتي الحوارية مع الآخرين الذين هم خارج ذاتي، فإنني أتعرف، في الحقيقة، على الآخرية أو الغيرية، الموجودة في هذه الذات، بعبارة أخرى، "إن الحوار الذي أدخل فيه مع الآخرين والذي يعطيني فرصة لتقوية الاستدلال وتنميته هو، في جوهره ممارسة لمعرفة الذات نفسها فحواري مع الآخرين هو حوار لمعرفة الذات"[17] وتاريخيا كانت العلاقات الإسلامية المسيحية أقل توترا حيث "اعتبرت العلاقات الإسلامية المسيحية نموذجا لعلاقات التسامح والتعايش السلمي بين الأديان والشرائع قاطبة، قال تعالى: ﴿**ولَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُم قِسِّيسِّين وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُم لَا يَسْتَكْبِرُون**﴾(**سورة المائدة 82**)، وإذا عدنا إلى منهجنا الثقافي الإسلامي وإلى صور التفكير القرآني الكريم، فإننا نجد أن أطروحة التكامل والتفاعل والتعايش مع الآخر، هي التي تطبع هذا التوجه الثقافي الإسلامي بين الأنا والآخر، وهذا التوجه الثقافي يقوم على الحوار والتفاعل الفكري مع مختلف الحضارات واستيعابها بدلا من الصدام معها، "ولا وجود لحضارة ولدت من عدم، أو نمت وتطورت خارج التفاعل مع غيرها من الحضارات"[18]والمقولة التي تبناها الروائي تعكس هذه الحقيقة التاريخية، فلا يمكن لأي حضارة أن تنشأ في معزل عن غيرها من الحضارات، وتلاقح الأديان ليس بتلك الصورة السيئة التي قد عبر عنها البعض، فالديانات الأخرى رغم كل ما ألصق بها من تحريفات أو ما تخللها من إضافات على يد الإنسان، تبقى كما قال الروائي على لسان القس:" **الدين نبتة طيبة إذا غرست بشكل جيد، أعطت نبتا طيبا، ولهذا فإصراري كبير وإلا ما جدوى وجود الإنسان على الأرض إذا لم يكن قادرا على لمس جراحات الآخرين بنوع من اللطف والحساسية التي لا تؤذيهم"**[19] فالروائي تجاوز المنظور الاجتماعي، خاصة تلك الصور المعهودة التي تصف الآخر بالفكر والفساد والانحلال الخلقي، ليحاول بذلك أن يعبر بطريقته على أن "التاريخ الإنساني على الرغم من الصراعات السياسية والعسكرية التي تخللته فإنه يروي التقاء الإنسان بالإنسان، والنتائج الحضارية لهذا الالتقاء، وهي النتائج التي أخذت

صورتها في الحضارات الإنسانية التي نشأت من خلال التفاعل الإنساني البناء، والتبادل الحضاري الإنساني، والتعايش الثقافي وما نتج عنه من تراث إنساني مشترك"[20]فالحوار في بعده المعرفي الإنساني يشكل مرتكزا أخلاقيا لدرء المخاطر التناحر بين الأمم والحضارات، وتلافي إمكانية حدوث صراعات وأزمات مستقبلية بين مختلف المجموعات البشرية، بما يحقق الغاية في تأمين استقرار الحياة الإنسانية واستمراريتها على هذا الكوكب، "فمن أهداف الحوار الخارجي تحقيق التعايش مع أهل الأديان الأخرى، ويشير الواقع الديني للبشرية إلى أن هناك اختلاطا دينيا واقعيا تتصف به كل بلاد العالم، حيث لا يوجد بلد واحد في العالم ليست به أقليات دينية أصبحت بهذا التعددية الدينية من سمات العصر"[21]، والكاتب عبر بطريقته على ضرورة الاعتراف بالديانات الأخرى، وتجاوز التفكير الأحادي أو التفكير الديني التعصبي الذي كثر الحديث عنه في روايات أخرى، خصوصا في علاقة المستعمِر بالمستعمَر، حيث كان المستعمَر دائما رافضا لتدخلات المستعمِر في حياته، وحاول بالتالي الحفاظ على ديانته، لكننا لا نجد في الرواية هذا التوجس من الآخر المختلف الديانة، لأن الكاتب اعتمد على المرجعية الدينية وعلى العقيدة الإسلامية فـ "الدين الإسلامي منذ بدايته دين تعايش، فقد اعترف بحق الاختلاف الديني، والثقافي والعرقي، وتعامل مع الإنسان مع ضمان لكل حقوقه" [22]، وإن الحوار الذي إنبنت عليه رواية الأمير قائم على تقبل فكرة الاختلاف بين الشعوب وتجاوز عقدة الخوف من كل ما يأتي من الخارج(الآخر) وتجاوز الكاتب لهذه النظرة السلبية كانت بتبني فكر الإصغاء ومحاولة فهم فكر الآخر المختلف، ومناقشة الأفكار انطلاقا من كونها أفكار، لا من منطلق قائلها أو ديانته أو ثقافته، فالفكر في حقيقته حرية، أي فعل اختياري، وهو يتطلب حركة اختلاف وفعل انسلاخ من سلطة وقيود الأفكار المسبقة، والأمير في علاقته مع القس، كان من الممكن أن يتصرف بتعصب ويجادل الآخر ويشكك في ديانته، لكنه لم يعبر على ذلك قال **مونسينيور ديبوش:" لا أدري من أين جاءني كل هذا، ولكني أحبك أكثر مما يمكنك أن تتصور لك في قلبي مكان واسع وفي ديني متسع لا يفنى ولا يموت "**[23]**،يجيب الأمير:" روحك أنت غالية علي، ومستعد أن أمنح دمي لإنقاذها، امنحني من وقتك قليلا لأتعرف على دينك وإذا اقتنعت به سرت نحوه"**[24]، في الحوار لابد أن يكون عند أصحاب كل اتجاه الاستعداد التام للتخلي عن آرائهم إذا تبين لهم غلطها ومخالفتها، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا خلع كل واحد من المتحاورين ثوب التعصب، وصدق في رغبته في الوصول إلى الحق، فاختلاف الناس أمر لا مفر منه، ولكن لا يجوز أن يصعد هذا الاختلاف حتى يصل إلى درجة القطيعة أو العداوة، فاختلاف الرأي لا يفسد للود قضية،

ورغم رغبة أي طرف في أن يصبح الطرف الآخر معه، ومثله، إلا أن ذلك لم يكن على حساب إلغاء الآخر، القس كان قد صور الأمير بصورة الإنسان المحب والمتفاني في محبة الآخرين، والعظيم في أفعاله وأخلاقه واعترف أنه يريده مسيحيا، يقول: **"أتعرف يا جون كلما تأملت هذا الرجل ازددت محبة له ولأخلاقه، الأنانية أحيانا مؤذية، في البداية تمنيته مسيحيا، نزهو به كأخ ونلقنه تعاليمنا ليذهب بها عند ذويه ويشيعها، ولكن مع الزمن تأكدت أن هذا الرجل الذي يشبهنا في كل شيء، لا يمكن أن يكون إلا هو، رجل محب لكل شيء يقرب الإنسان من المحبة والله"**[25]، وهذا التصرف مع الأخر هو أساس الحوار، فالحوار مع الآخر هو بناء مشترك إنساني على عدة أسس تضمن حدوث التعايش الإنساني، وتساعد على تحقيق المشترك الإنساني، فالبشر من خلال المبدأ الإسلامي إخوة يعودون إلى أصل واحد هو أدم وحواء عليهما السلام، فهناك درجة من القرابة تربط البشرية ببعضها البعض مهما اختلفت ألوانهم وهيئاتهم ولغاتهم، أنظمتهم، عادتهم، وتقاليدهم، وثقافتهم، وهذه الاختلافات أملتها البيئات المتنوعة، "[26]، يقول الروائي على لسان شخصية أخرى غير محورية لكنها صورت الذات العربية المجسدة في شخصية الأمير بصورة تعاطفية إنسانية تسامحية:" على لسان **الكولونيل أوجين دوما" ستجده ساكنا في خلوته، يعذر حتى الذين تسببوا في عذابه الكبير، مسلمين كانوا أم مسيحيين، ويعزو كل ذلك إلى الظروف القاسية التي تتسلط فجأة على الأفراد والجماعات"**[27]، إن رؤية الروائي هي رؤية حضارية، رؤية ترى في الآخر مفكرا يمكن التناقش معه ومحاولة الإجابة عن الأسئلة الوجودية، وتعريفه بحقيقة الدين، يقول **مونسينيور ديبوش:"اليقين بامتلاك الحقيقة يعمي صاحبه ويقوده نحو الهلاك"**[28]وقد اتفقا رغم اختلافهما على مسألة قداسة الروح وضرورة المحافظة عليها وصونها، يقول **مونسينيور دي بوش:" هكذا هم البشر مونسينيور لا يعرفون أن الله منح الروح وقدسها، لا يمكن مسها إلا بالحق، أية قضية تساوي حياة إنسان وعزته"**[29] وهي أسئلة اتفق حول أجوبتها الأمير والقس على حد سواء، كلاهما نابذ للحرب، ومحب للسلام، وقد اتفقا على نقطة جوهرية أن السلام هو المناخ الطبيعي الذي يمكن الشعوب من استثمار إمكاناتها، وأن منطق الحكمة والعقل يتنافى مع حالة الصراعات والحروب التي عاشتها ولا تزال تعيشها البشرية، يقول القس:" **الحروب يا حبيبي جون مدمرة دوما، الذين يبدؤونها ليسوا هم من ينهيها دائما تأكل الظالم والمظلوم"**[30]، يضيف الأمير مؤكدا على كرهه لجو الحروب، وعلى محاولته الدائمة في وضع حد لإراقة دم الأبرياء:" **قبل أن أدخل في ساحة الحرب والمعارك القاسية، إنسانيتي اتجاه العرب وتجاه جنودي تحتم علي أن أقترح عليكم السلم قبل**

الحرب"[31]، فما يجمع بين الشخصيتين المحوريتين في الرواية هو الرغبة في عالم دون حروب، ودون اضطهاد للإنسانية أو استعبادها بأي شكل من الأشكال وبذلك نستطيع القول أن الكاتب الروائي كمثقف فاعل حاول الرد بروايته هذه على نظرية صدام الحضارات واعتبارها نظرية "مضادة لمسيرة التاريخ والحضارة، ولا تنسجم منطقيا مع معطيات التاريخ والحضارات الإنسانية، والمشترك الإنساني هو نتيجة التقاء الحضارات وتفاعلها عبر التاريخ، ولا يمكن أن نتصور نموا مستقلا لكل حضارة إنسانية دون اتصال بالحضارات السابقة عليها والمعاصرة لها"[32] ولعل أهم ما يدل على فساد هذه النظرية عدم اعترافها بتعايش الثقافات، وعدم إيمانها بالمشترك الإنساني، واعتقادها المطلق في صدام الثقافات وعدم وجود قاعدة إنسانية مشتركة، وعدم حدوث تبادل ثقافي أو اندماج للقيم الثقافية الإنسانية، " ونظرا لهذه البنية الفاسدة لنظرية صدام الحضارات فقد اتهمها ناقدوها بأنها نظرية ساذجة لا تعترف بالتقارب التاريخي، ولا بالقيم المشتركة والأساليب الحياتية وطرائق التفكير الاجتماعية الإنسانية المشتركة" [33]، ويقول عالم اللاهوت الكاثوليكي الألماني المعروف "هانز كونغ" (Hans Kµng) :"لن يكون هناك سلام بين الأمم ما لم يكن هناك سلام بين الأديان، ولن يكون هناك سلام بين الأديان ما لم يكن هناك حوار بين الأديان" [34]، الحوار بين الأديان إذن هو الحل الوحيد للحل بين هذه الصراعات، باعتبار أن الدين ما ينظم الحياة الإنسانية بكل جوانبها، وينظم بالتالي العلاقات البشرية، وبذلك نستطيع تجاوز هذه الصراعات المتجذرة عبر التاريخ.

خاتمة:

من خلال العمل الإبداعي الذي حاولنا تحليله ومن خلال شخصيتي الأمير والقس، توصلنا في نهاية بحثنا هذا إلى:

– أنّه ولأجل تحقيق تدبير الاختلاف على أرض الواقع يجب الانطلاق من فكرة أنه لا ضرر أن ينتمي الإنسان إلى ثقافة أو عرق أو عقيدة.

–أنّ الضرر يبدأ حينما يتقصد هذا المنتمي الإعلاء من شأن انتمائه الديني أو الطائفي أو العرقي، فيضعه في مرتبة أعلى من مرتبة الآخرين بهدف أن يظهر بمظهر المتفوق.

–أكّد الروائي بأن التعصب يحدث حين يتم تكريس التعصب الهوسي الأيديولوجي ويتم كذلك تكريس الإيمان بأيديولوجية مغلقة وسرد مطلق الصواب.

–شخصية الأمير وشخصية القس كما صورهما الروائي هي شخصيات لم يسمح لها بالتقوقع في إطار هوية أو معتقد، وهي تنتقل من عوالمها الداخلية إلى عوالم الآخر تبحث وتتعمق وتنتقد، وكلما اكتشفت شيئا كانت كذلك تكتشف ذاتها وتفهمها فهمًا أفضل، وذلك يضيء مسارها ورؤيتها وآرائها عن العالم، وموقفها من الأحداث التي تعاصرها، ولا تقبع أسيرة لفكرة دينية أو عرقية، ومع أنها تكافح للتعبير عن إيمانها بمبدأ وانتمائها إلى قضية، فإنها لا تقف ضد حق الآخرين في الإفصاح عن مبادئهم وأفكارهم.

–توظيف مثل هذه الشخصيات في رواية كتاب الأمير تفصح عن موقف الروائي من العالم والقيم الدينية السائدة والظواهر الثقافية السياسية، فمن وراء شخصيات التاريخ ترتسم رؤية ناقدة للتدهور الأخلاقي والقيمي والسياسي، ويدعو الروائي من خلال هذا العمل إلى الاجتهاد في تدبير الاختلاف، والتخلص من التقوقع على الذات.

هوامش:

[1].الأعرج واسيني: كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، منشورات الفضاء الحر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002، ص 90.

[2].الأعرج واسيني : كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، ص 50.

[3] .أنجلو ياكوبوتشي: مايكل، أعداء الحوار، أسباب اللاتسامح ومظاهره، ا الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010، ص 361.

[4].طه عبد الرحمان: الحوار أفقا للفكر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2012، ص 30.

[5].باختين ميخائيل : شعرية دوستويفيسكي،، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1986، ص 22 .

[6]. الأعرج واسيني: كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، ص145.

[7] . ميخائيلباختين :شعريةدوستويفيسكي، ص09.

[8].الأمير عبد القادر: رسالة إلى الفرنسيين، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006، ص 46.

[9] .حسام الدين علي نجم:إشكالية التبعية الثقافية في الفكر السياسي المعاصر، جدلية الاندماج والتنوع، بيروت، 2010، ص 108.

[10].الأعرج واسيني : كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، ص 50.

[11].الأعرج واسيني : كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد،، ص 50.

[12].عطا محمد حسن زهرة: تكامل الحضارات، بين الإشكاليات والإمكانيات، كتاب الأمة، قطر، عدد 121، جمادي الأول، 1425، ص 325.

[13]. بلينيل إيدوي : من أجل المسلمين، وزارة الثقافة والفنون والتراث، دولة قطر، ط1، 2004، ص 36.

[14].الأعرج واسيني: كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، ص 56.

[15]. الأعرج واسيني :كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، ص 55.

[16]. الأعرج واسيني: كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، ص 57.

[17]. منيف مرحبا: محمد عبد الرحمن، أصالة الفكر العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 76.

[18]. حسن أحمد : محمد خليفة، الحوار منهجا وثقافة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر 2007، ص 126.

[19]. الأعرج واسيني:كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، 246.

[20]. حسن أحمد :الحوار منهجا وثقافة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،، ص 126.

[21]. حسن أحمد : الحوار منهجا وثقافة، ص 116.

[22]. إسماعيل مهنانة: العرب ومسألة الاختلاف ومآزق الهوية، والأصل والنسيان، منشورات ضفاف، لبنان 2014، ص 16.

[23].الأعرج واسيني: كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، ص 51.

[24].الأعرج واسيني: كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، ص 51.

[25]. الأعرج واسيني، كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، ص 248.

[26]. محمد خليفة حسن أحمد: الحوار منهجا وثقافة، ص 117.

[27]. الأعرج واسيني:كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، ص 48.

[28]. الأعرج واسيني: كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد،ص 148.

[29]. الأعرج واسيني: كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، ص 148.

[30].الأعرج واسيني: كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، ص 288.

[31]. الأعرج واسيني، كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، ص288.

[32]. محمد خليفة :حسن أحمد، الحوار منهجا وثقافة، ص 127.

[33]. موللر هارل: تعايش الثقافات والقيم الإنسانية، مشروع مضاد لهنتجتون، مجلة التسامح سلطنة عمان، العدد، 7، 2004، ص 12.

[34]. موللر هارل : تعايش الثقافات والقيم الإنسانية، مشروع مضاد لهنتجتون، ص 16.